

كلمة الأب رينيه شاموسي

رئيس جامعة القديس يوسف، بيروت

## جامعة يسوعية في لبنان : متطلباتها ومميزاتها

لمناسبة الاحتفال بعيد الجامعة السنوي

في ١٩ آذار ٢٠١٢

في حرم العلوم والتكنولوجيا، مار روكز



أصحاب المعالي والسعادة والسيادة،  
حضرات رؤساء الجامعات في لبنان،  
حضرات النقباء ورؤساء جمعيات المهن الحرة وهيئاتها،  
حضرات السيدات والسادة الأساتذة،  
وممثلي الهيئة الإدارية، والطلبة، ورابطات القدامى،  
أيها الأصدقاء،

لقد كان من المفيد أن نستمع إلى ما قاله البابا بنديكتوس السادس عشر، في صيف العام ٢٠١١ ذاك، في مدريد، حول الجامعة<sup>١</sup>. فلقد وصفها يومَ ذاك بأنها «البيت الذي يُبحث فيه عن حقيقة الكائن البشريّ الخاصّة». ثمّ أوضح، في معرض نقده للنظرة النفعيّة الصّرف إلى التربية، أنّ «الجامعة تجسّد إذاً مثلاً أعلى ينبغي له ألاّ يفقد فضيلته بسبب الايديولوجيات الرافضة للحوار العقلانيّ، ولا بسبب الخضوع للشروط التي يملئها المنطق النفعيّ للسوق الذي يرى في الإنسان مجرد مستهلك...». وباختصار، فإنّه كان يقول إنّ الجامعة هي مجموعة «أساتذة وطلّابٍ يبحثون معاً عن الحقيقة في المعارف كلّها».

---

١ البابا بنديكتوس السادس عشر، لقاء مع الجامعيّين، مدريد، ١٨ آب ٢٠١١.

الجامعة هي بيتٌ، ومقامٌ رفيعٌ للبحث عن الحقيقة، وجماعةٌ يلتقي فيها أساتذةٌ وطلابٌ ... فمن يمكنه، إن أخذنا في الحسبان ما نحن عليه بالفعل، مخالفة هذه التوجّهات؟ لا أحد. ولكننا نعرف مع ذلك أنه يتعيّن علينا أن نضيف الكثير للإحتفاء بجامعتنا، لأنّها تتمتع في نظرنا بكامل مميّزاتها. فبعد أن أبصرت النور في القرن التاسع عشر في صميم الشرق الأدنى، وتكوّنت تدريجياً من عددٍ كبير من الوحدات التعليمية التي تشكّلت على امتداد السنوات، وقامت على سواعد آباء يسوعيين و سواعد علمانيين وفدوا من المناصب الثقافية والدينية المختلفة، غدت اليوم هذه المجموعة التي تسعى إلى بناء وحدتها مع المحافظة على ما تتمتع به كل مؤسسة من مؤسساتها من خصائص مميّزة. وهي تبقى جامعةً يسوعية مدعوةً إلى أن تقدّم للبنان الذي تتجذّر فيه، وللمنطقة التي تحوطها خدمة أصيلة وجوهريّة، وهذه هي المهمة التي نضطلع بمسؤولياتها.

هل نحن واثقون من أننا أهلٌ للوفاء بما ترتبه علينا هذه العهود؟ فهل وعينا تماماً هذه «الخدمة الأصيلة والجوهرية» التي تكوّن هويتنا، وهل أدركناها، ووضعناها موضع التنفيذ؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة ليست بالأمر اليسير. فيمكننا في الواقع أن نسترسل إلى دراسة تاريخية لتطوّر جامعتنا، وأن نحاول اكتشاف ما كان يدور في خلد الآباء الملتحين في تلك الأزمنة الذين تمكّنوا، رغم ما لا يُعدّ ولا يُحصى من الصعوبات، من إنشاء هذه المؤسسة وتطويرها بكامل عظمتها، غير أن مثل هذا العمل يتجاوز طاقتنا، وما زالت معطياته على درجة كبيرة من التبعثر. وعلى نقيض ذلك، يمكننا أن ننكبّ على تتبّع التطوّر الدلالي لمفهوم «الجامعة»، فنحدّد ما كان يعنيه في القرن التاسع عشر، وتحديدًا في العام ١٨٧٥، وما يعنيه اليوم، لا في ضوء ما تعلنه الكنيسة في إطار سلطتها التعليمية فحسب، بل أيضاً وفق شروح المجامع العامة المختلفة التي عقدتها الرهبانية اليسوعية، وشدّدت على مرّ السنين على نقاط ما فتئت تزداد تخصّصاً، ومنها ضرورة التزام الجامعات اليسوعية بأن تكون مؤسسات تعليمية وبحثية، « في خدمة

الإيمان وتعزيز العدالة» وفق ما قيل في المجمع العام الرابع والثلاثين [القرار ١٧-١٩٩٥].

لن نعتد هذه المقاربة ولا تلك. فإننا في الواقع نرى أنه ما من تربية يسوعية يمكن التعرف إليها بصورة واضحة وصريحة، على ما ورد على لسان الراهب اليسوعي الفرنسي، الأب باسكال سافيز *Pascal Sevez*، في المحاضرة التي ألقاها عام ٢٠٠٧ في مونبيليه. وعلى خلاف ذلك، فإن صح أن اليسوعيين الأوائل لم يرغبوا في أن يكونوا أساتذة بصورة جلية فإنهم في الواقع رغبوا في أن يتلقوا تنشئتهم في السوربون، وحرصوا فيما بعد، على إعادة إنتاج هذا النظام التربوي القائم على ما يكره التلامذة الأكبر سنًا على مسامع زملائهم الذين يصغرونهم سنًا، وعلى ما يشتمل عليه من تمارين المناظرات الخطابية. فلقد بدا لهم أنه سيتاح لهم بهذه الطريقة أن يكونوا، وفق رغبة القديس اغناطيوس، في خدمة كل واحد من المتعلمين، مع مراعاتهم احترام كل شخص. فحين نعلن أن جامعتنا هي حقًا جامعة يسوعية، فإن ذلك يعني بالتأكيد أننا نعلن أنها ما زالت حتى اليوم حريصة على ما كان أسلافنا الأوائل حريصين عليه، وأنها ما زالت تستلهم ذلك الحدس الجوهري، ولكن ذلك يعني أيضًا أننا سنسعى إلى تقديم الأدلة على ما تقدم. وهذا هو بالضبط ما نرغب في القيام به، فنأمل تبعًا في المنظومة المجتمعية التي أقمناها، والبرامج التعليمية والبحثية التي نطورها، وأخيرًا السمات الخاصة التي يبدو لنا أنه من الضروري أن تطبع رسالتنا، أي: الانفتاح على العالم الخارجي، والابتكار المتواصل، وتبني شعار «دوماً المزيد» *«le magis»*، الذي ألهم الآلاف من تلامذة القديس اغناطيوس، وتعزيز النظرة النقدية التي تؤدي إلى تمييز ما هو الأفضل.

× × × × × ×

## خيارٌ سياسيّ، والتزامٌ اقتصاديٌّ وثقافيٌّ

يحملنا إذاً تأملنا أولاً في المنظومة المجتمعيّة التي أقمناها، على أن نسترجع تاريخ جامعة كانت في بدايتها مجرد تجميع لمؤسّسات أو فروع تمتاز بغاياتها الخاصّة بها، ويحملنا في الوقت نفسه على أن نخضع للمساءلة الخيارات الثقافيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة التي أسهمت في الماضي وما زالت تُسهم اليوم في النأي بجامعاتنا عن أن تكون مصيدة للزبائن وذات أهداف تجاريّة. أمّا التاريخ، فإنني أترك لسواي أمر كتابته : لقد سبق لي أن ذكرت أنّ ثمة محاولات أوليّة بوشر بتنفيذها، ولكنّ العمل الذي ما زال ينتظرنا في هذا المجال كبير. وأمّا ما يهمّنا أكثر فهو تحليل دلالات الأبعاد الثلاثة التي تسمح لإحدى المجموعات أن تصبح مجتمعاً. فإنّ هذا الأمر يستدعي فعلاً سياسياً، ومزيجاً من الاقتصاد والثقافة.

عملٌ سياسيّ. فإنّ إنشاء مؤسّسة تمنح شهادات في قلب المجتمع المستضيف هو، منذ البداية، ومن وجهة نظرنا، عملٌ سياسيّ. فإنّه يستدعي في الوقت نفسه التزاماً بخدمة البلد، وتكوين مجموعات مؤهّلة لتتجنّد من أجل صالح هذا البلد. ولن يتمّ ذلك كيفما اتّفق، بل وفقاً لقيم سيتمّ دوماً اعتبارها أساسيّة : احترام الآخر، أيّاً يكن التزامه الدينيّ أو السياسيّ، والحرص على حقوق الإنسان، والاعتراف بما في الأشخاص من أبعاد روحيّة. وسيتمّ ذلك أيضاً وفقاً لضرورات أفضت سريعاً إلى تأسيس كليّة حقوق (عام ١٩١٣)، ويعني ذلك أنّه في نظر يسوعيّ تلك الحقبة، لا يمكن أن يقوم بناء البلد إلاّ على قاعدة متينة من التفكير الحقوقيّ الرفيع المستوى. وسيتمّ ذلك أخيراً وفقاً للحرص على التمثيل العامّ لشريحة معيّنة من المجتمع اللبناني، تشمل مواطنين من مختلف الطوائف والانتماءات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وإنّ خصّصت الطوائف المسيحيّة بالأولويّة، وبالتالي، عملياً، الطبقات الوسطى والطبقات الوسطى الدنيا.

عملٌ سياسيٌّ إذا، مقرونًا بهمَّ اقتصاديِّ. فإذا كان الهدف من خلال إنشاء الجامعة وتطويرها تحقيق النفوذ السياسي في قلب المنظومة المجتمعيَّة، فمن البديهيِّ أن المقصد هو أيضاً تلبية الحاجات الإنسانيَّة الحقيقيَّة التي يشعر بها الجميع، وذلك من خلال تزويد الطلاب والطالبات الذين سينضمُّون إلينا بوسائل مشروعة لتأسيس عائلات، وبناء مجموعات انتاجيَّة، وباختصار لتأمين سبل العيش والبقاء. ونحن كلُّنا نعرف بالتأكيد أنه يتعيَّن علينا في هذا المجال أن نواجه تحدياً كبيراً، وسُيُعلن البعض، ربّما بشيء من التسرُّع، أن الجامعة تنتج في نهاية المطاف خاصَّة مهاجرين وعاطلين عن العمل. ولكننا نعرف، بفضل الأبحاث والتحقيقات التي قام بها المرصد الجامعيِّ للواقع الاقتصاديِّ والاجتماعيِّ، وشملت السنوات الأخيرة، أن ثلاثة من أربعة من خريجينا يستقرون في لبنان، وأن أربعة من خمسة خريجين يجدون عملاً. وهذه نتيجة جيِّدة إذا ما قارناها بالمعدلات الوطنيَّة، وإن سلّمنا بأن أجور المهن التي يجدها الخريجون في لبنان بالذات ورواتبها ليست مجزيَّة بالضرورة.

بقي علينا أن نحدِّد البعد الثالث الذي يقتضيه التزام الجامعة في منظومة مجتمعيَّة، وأعني به الثقافة. فقد كتب أحد أسلافي، مقتبساً عن أحد كبار أساتذة جامعة توبنغن (*Tubingen*)، ما يلي: «لا يحقُّ لنا أن ندع جامعاتنا تتحوَّل إلى مجرد مؤسسات لتعليم الاختصاصات المختلفة... فمن الضروريِّ أيضاً أن تنشئ الإنسان وشخصيَّته الأدبيَّة. فعلينا إذا أن نوقظ عند الجميع الحسَّ بمسؤوليَّاتهم تجاه الثقافة، وأن نوهِّلهم ليصبحوا مرشدين في هذا المجال.» ومن شأن ذلك أن يحيلنا على الباحثين الذين يرون في الثقافة الأمر الجوهرِي. فيقول أحد الباحثين الفيلسوفيين الشبان: «الثقافة هي هذا الينبوع الذي لا ينضب، والذي يوجِّه السلوك الإنسانيِّ ويغذيِّه.» فإذا غاب هذا الينبوع، أي «الفنُّ والأخلاق، والمعرفة، والحكمة، وتوقنا إلى المقدَّس، وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تجعل الحياة أهلاً لأن نحيها»، فسنواجه سلسلةً متتاليَّة من التصرفات الشاذَّة والهدَّامة.

فتلك هي المعايير الثابتة الثلاثة التي يبدو لنا أن مراعاتها قد هيمنت على قرار تأسيس جامعتنا. فلقد كان هذا القرار مزيجاً من عمل سياسي، وهم اقتصادي، وتطلب ثقافي. وما زالت هذه الديناميات الثلاث متفاعلة اليوم، أو هذا هو على الأقل ما نرجوه. وهذا هو ما يتيح لنا أولاً أن نحيا ضمن فرادتنا.

××××××

### برامج تعليمية، ونشاطات بحثية، والتزام مواطني

ولكن هناك المزيد، كما ذكرنا أعلاه. فهناك مجموع الاختصاصات والأبحاث التي تكون ما نعلمه. وقد أتاحت لنا زيارة قمنا بها بالصدفة إلى دائرة المحفوظات اكتشاف أمور بديعة. فهاكم مثلاً أحد رؤساء جامعتنا وهو يذكر، في العام ١٩٠٧، أي بعد انقضاء اثنتين وثلاثين سنة على إنشائها، أمام طلابها، سبيل الاختصاصات التي يؤثرها. وهي الاختصاصات المؤمنة يومذاك، ومن بينها اللاهوت الذي يستهوي الشبان «الذين تستحوذ عليهم طموحات سامية»، والطب لمن يجدون في مثل السامري الصالح تجسيدا للمحبة، والكلية الشرقية لمن « وسم جبينهم بالوشم النادر جداً الذي يدل على الخاصة التي اختارت العلم الرفيع». ثم يعدد المهن الكثيرة التي لم تتمكن الجامعة من تأمينها بعد بسبب «ظروف الحياة» القائمة في البلاد - ويعني ذلك أن الجامعة لم تحصل بعد على الترخيص الضروري للمباشرة بتدريسها - ولكنها تنصح مذاك باعتمادها ... ويقصد بها «هذه المهن المتعددة التي يمارس في مجالاتها نشاط التجار، والصناعيين، والمهندسين، والاختصاصيين في الشؤون المالية، والمحامين، والقناصل، وغيرهم من أرباب العمل وأهل النفوذ». ولن تلبث جامعتنا أن تنشئ معهداً للهندسة وكلية للحقوق، ثم ستخربط، بعد أن تجاوزت مرحلة الحرب العالمية الأولى القائمة، في مسار متواصل من التطور والنمو.

إن ما يهمننا في بدايات الجامعة هذه، هو من جهة الصيغ التي أُرسيت وفقها أسس هذه الرسالة. فأول ما يطالعنا بصورة متلازمة العناية بالنفوس وبالأجساد، أي اللاهوت والطب، ثم تلاهما مباشرة العلوم الشرقية، نظراً إلى أن طابع «العلم الرفيع» كان من نصيب الشرق، بثقافته، ولغاته، وإنتاجه. وفي سياق هذا الاهتمام تندرج المكتبة الشرقية، ومجلة جامعة القديس يوسف *Mélanges* (في العام ١٩٠٦)، والكلية الشرقية، مهد معهد الآداب الشرقية... وكانت جامعة القديس يوسف عهد ذاك، تضم مدرسة تُطرح فيها مسألة اللغات بكثير من الحدة - فيختار بعض التلامذة اللغتين اللاتينية واليونانية، ويختار بعضهم الآخر التركية والإنكليزية، وتُفرض على الجميع اللغة الفرنسية واللغة العربية خاصةً. وأما في مرحلة التعليم العالي، فيطالعنا منذ ذلك الحين التركيز على الامتياز المهني، فضلاً عن البحث العلمي والنشر، وباختصار «العلم الرفيع»، وهو الهدف الذي لن تتخلى جامعتنا أبداً عن نشدانه!

كانت تلك إذاً خصائص جامعتنا المميّزة في بداياتها. وغني عن البيان أن إنشاء اختصاصات جديدة تزايد على مرّ الأيام، وقد راحت الكليات والمعاهد تسعى إلى أن تعزز حضورها على الساحتين الجامعية والوطنية، وتجهد لتولّف مجموعة محكمة البناء. وأعطى لجميع طلبتنا أن يتخرّجوا، وقد زودوا بالتأكيد بتنشئة ممتازة، بفضل تعليم يعرف المعنيون بإسداءه حق المعرفة أنه لن يُقدّر له أن يصل إلى متلقيه ما لم يتوسّل أساليب تربوية جديدة، وقد زودوا أيضاً بمهارات غدت اليوم أساسية: القدرة على الإبداع في حقل الصناعة، - وتحضر أماننا هنا تجربة بيريتيك *Berytech* الذي يؤمّن هذا النوع من الخدمات،- وحبّ الابتكار والبحث - على غرار ما يتحقّق في نطاق قطب تكنولوجيا الصحة وكرسيّ الابتكار،- والانفتاح على التزامات من نمط جديد في خدمة المجتمع - وتبرز على هذا الصعيد عملية اليوم السابع-. التعليم، والبحث، والانفتاح على عالم العمل، والالتزام من أجل صالح البلد، والحياة الطلابية التي تسعى إلى تنظيم

نفسها من خلال الرياضة وسواها من النشاطات، هذه كلها عناصر تسمح برسم صورة جامعة تتمتع بأسلوبها الخاص، وتسعى يوماً بعد يوم، إلى أن تُقيم هيكلتها وأن تكيّفها باستمرار وفق معايير النوعية والامتياز.

× × × × ×

### الحوار، والفرنكوفونية، والتقاليد

ولكن إبراز هذه السمات المميزة لا يعبر عن كل ما يحدّد جامعتنا. فخلف هذه السمات المميزة التي سلّطنا الضوء عليها، وقبل ذكر المزايا التي ما زال يتعيّن علينا أن نكتشفها، ثمة هواجس غالباً ما يرد ذكرها في النقاشات وهي تتسم بدلالات معبرة. إنّ جامعتنا هي كاثوليكية ولكنها مهتمة اهتماماً كبيراً بحوار الثقافات والأديان؛ وجامعتنا هي فرنكوفونية ولكنها تتبنى بحزم تعدد اللغات؛ وجامعتنا منفتحة على الحداثة، ولكنها أمينة للتقاليد المتوارثة.

قلنا أولاً إنّها جامعة كاثوليكية ولكنها مهتمة اهتماماً كبيراً بحوار الثقافات والأديان. إنّ موقف شرعتنا من هذا الموضوع معروفٌ وجازم: «تضطلع جامعة القديس يوسف بمهمتها التعليمية والبحثية بناءً على الرؤية المسيحية التي اعتمدها منذ تأسيسها». ففي ضوء هذا الإعلان المؤسّس ترتّب من غير صعوبات كل نظام القيم التي اعتُمدت في تلك المرحلة، وأمکن على أساسها الحديث عن «الانفتاح على الحياة الروحية»، أو عن «التسامي الروحي»، وأيضاً عن «الحرية الدينية»، و«العدالة الاجتماعية» و«النزاهة الفكرية والصرامة الأخلاقية». لقد تمّ تصوّر جامعتنا، منذ عهدنا الأول، في إطار منظور انفتاح الديانات بعضها على بعض وتفاعلها، ولنا في تأسيس الكلية الشرقية وبعدها معهد الآداب الشرقية، الشواهد الأولى على توجّه الجامعة هذا، وذلك قبل أن يبرز على الساحة معهد الدراسات

الإسلامية والمسيحية الذي أُسس في العام ١٩٧٧. وكان من شأن إنشاء كرسيين جديدين أن يدعم، بطريقة علمية ومنهجية، توجهات الجامعة هذه الداعية إلى الانفتاح والحوار: كرسي لويس د «انترولوجيا تفاعل الثقافات» *Louis D* الذي يتولاه رئيس جامعتنا الفخري الأب سليم عبو، و كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة بين الأديان، والوساطة والحوار، الذي تولاه مؤخرًا معالي الأستاذ طارق متري. فيمكن جامعتنا إذاً أن تؤكد هويتها المسيحية، من غير أن يثير ذلك أية مشكلة، ومن دون أن يحول ذلك دون رفضها كل أشكال التعصب، كما ترفض، في ما يتعلق باختيارها طلابها وأساتذتها وموظفيها، كل انغلاق في حدود طائفة معينة.

وجامعتنا هي جامعة فرنكوفونية، ولكنها معنية بتعدد اللغات... وليس من قبيل الصدف أن كانت جامعة القديس يوسف في يوم من الأيام في عداد الأعضاء الذين أسسوا الوكالة الجامعية للفرنكوفونية. والفرنكوفونية في نظرها هي في الواقع أكثر من مجرد شعار. ففي ما يتجاوز الحضّ المنبثق عن هذه الفكرة المحورية، والذي يعني الانفتاح الثقافي على عالم بأكمله كان على تناغم تام مع عدد من بلدان العالم العربي، ثمة موقف مبدئي يحملنا على القول بأن تنشئة مبنية على هذا الأساس هي مجزية تماما. فالفرنكوفونية هي في الواقع سبيل في إدراك الواقع بأبعاده كلها. وهو نمط في التفكير لا يحجب السمة العلمية، ولا البلاغة، ولا الشعر. والفرنكوفونية التي احتضنت مفكرين كباراً، تغتذي اليوم بمئات الفضائات الثقافية الجديدة، وهي تستوعب هذه العوالم وما يتصل بها من قيم تُعلي من شأن الحرية والتضامن. وسيكون من المؤسف جداً التخلي عن هذه الآفاق، ونحن في الحقيقة أبعد ما نكون عن الرغبة في ذلك. ومع ذلك، فإن ما كان يتم التعبير عنه بخفر في المراحل الأولى من تاريخ جامعتنا، صار اليوم عقيدة ملزمة: فإن تكون فرنكوفونياً اليوم يعني بالتأكيد العناية باللغة الفرنسية كما تحسن ذلك كل واحدة من مؤسساتنا، وخير مثال على ذلك كرسي ليوبولد سيدار سنغور للفرنكوفونية

*Léopold Sédar Senghor* الذي تتولاه البروفسورة كاتيا حدّاد، ولكن ذلك يعني أيضاً أن تقبل بالانفتاح على عوالم أخرى مختلفة، وعلى لغات أخرى. وهذا هو مصدر القرار الذي اتخذته جامعتنا باعتماد نظام يتيح التثبّت من أنّ طلبتنا هم فعلاً ثلاثيو اللغة. ويرتبط بهذا التوجّه أيضاً اعترافنا بدروس تعطى باللغة العربيّة، وباللغة الإنكليزيّة أيضاً، فضلاً عن كثافة الدروس التي تُعطى باللغة الفرنسيّة. ويرتبط به أيضاً افتتاح فرع لجامعتنا في دبي، والضوء الأخضر الممنوح لتأمين عدد من الاختصاصات بثلاث لغات. هذا، من غير أن ننسى اللغات الأخرى... المؤمّنة باستمرار في جامعة القديس يوسف؛ وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنّ كليّة جديدة للغات ستفتح أبوابها قريباً.

وهي أخيراً، جامعة متمسّكة بتقاليدها العريقة، ولكنها منفتحة تماماً على الحداثة. لا يمكننا أن نحوم من ذاكرتنا الجماعيّة السنوات المئة والستّ وثلاثين من عمر جامعتنا. وما زالت جامعة القديس يوسف تلك المؤسّسة التي بذل فيها عددٌ كبير من الأساتذة أقصى جهودهم حتّى تُخرّج هذه الأفواج من أرباب المهّن، والمثقفين، والمواطنين المؤهلين لإحداث التغيير في بلادهم. وما زالت هذه العزيمة نفسها تحرّكنا، وما زلنا نملك الحرص نفسه على أن نبقى أوفياء لذاتنا وفي الوقت نفسه منفتحين لاستقبال كلّ جديد. لقد أشرنا في ما سبق إلى حرصنا على إبراز خاصيتنا المميّزة؛ وقد تبين لنا أنّها لا توصف بكلمات قليلة ولكننا نستطيع، بلمسات متتالية، أن ننح شيئاً فشيئاً في رسم لوحة لجامعتنا المتمسّكة بأصالتها، ورسم لوحة لأهلها الجامعيّين الذين لا يُنكرون ماضيهم ولا حاضرهم المتوقّد.

× × × × ×

## مميّزات جامعتنا

بقي علينا الآن أن نحدّد، بعد العناصر التي قمنا بتسليط الضوء عليها، ما يمكننا اعتباره في صميم كياننا. لقد سعى في الواقع عددٌ كبيرٌ من الكتاب إلى تحديد الجامعة في ما ينبغي لها أن تكون عليه بالتأكيد. فيطيب لنا أن نستمع إلى نعوم شومسكي *Noam Chomsky* وهو يصف الجامعة بأنها «المكان الذي يمكن أن يتواجد فيه، المثقّف الحرّ، والناقد الاجتماعيّ، وكذلك التفكير الوقح والجزريّ الذي نحن بأمرّ الحاجة إليه لننجو من الواقع المفجع الذي يهدّد بابتلاعنا»<sup>٢</sup>. ونؤيّد أيضاً ما أكّده تيودور برشم *Théodore Berchem* حين يعرض مختلف أشكال الحوار التي يجب أن تكون في قلب العمل الجامعيّ: الحوار بين الاختصاصات المختلفة، والحوار بين الحضارات، والحوار بين الأجيال ومع قوى المجتمع<sup>٣</sup>. وأمّا نحن، فما عسانا نقول؟ لقد رأينا كيف نشأت جامعة القديس يوسف وتطوّرت، ولكن ما هي اليوم السمة المميّزة الأبرز التي يتعيّن علينا أن نجاهد في سبيلها؟ ما من أجوبة جاهزة عن هذا النوع من الأسئلة. فلنعلن مع ذلك أنّه ثمة مقتضيات ينبغي لنا أن نمارسها، وأنّ هذا هو الأساسيّ المطلوب. وفي ضوء هذه المقتضيات التي يظهر فيها أثر روحانيّة القديس إغناطيوس جلياً، يمكننا أن نشدّد على الأبعاد الأربعة التي ينبغي أن تطبع جامعتنا بطابعها وأن تصفها في خصوصيّتها المميّزة. فإنّ جامعة هذا هو طابعها ينبغي لها في نظرنا أن تكون في الوقت نفسه مكاناً للانفتاح على الطبقات الاجتماعيّة كلّها، وعلى الاختلافات كلّها، ومكاناً لإعادة النظر الجذريّة ولحسن التمييز، ومكاناً ننطلق منه دوماً نحو المزيد من الانخراط في المجتمع، وأخيراً مكاناً للابتكار والإبداع.

<sup>٢</sup> N. Chomsky. *Réflexions sur l'Université*. Ed. Raisons d'Agir. Québec 2010, p. 63.

<sup>٣</sup> Théodore Berchem. *Tradition et Progrès ; la mission de l'Université*. Collège de France. Fayard 2004.

«مكانٌ للانفتاح على الطبقات الاجتماعية كلها، وعلى الاختلافات كلها...». نلتقي هنا مجدداً موضوع العيش المشترك، الأساسي بالنسبة إلينا جميعاً، وملتقى أيضاً الحرص الواجب علينا لنستقبل دوماً جميع الراغبين في تحصيل تنشئة جامعية، كائناً من كانوا. إنَّ التجاوب مع هذه الرغبة، وتنمية هذه الرغبة، هما أمران أساسيان، وينبغي ألاَّ يحول حائلٌ دون استقبالنا جميع الطلبة من دون أيِّ تمييز، وألاَّ يحول حائلٌ دون تأمين المرافقة اللازمة التي يقتضيها ذلك. لقد ذكرنا منذ قليل أهمية التفاعل الثقافي والتفاعل الديني في جامعتنا، فلا يسعنا إلاَّ أن نؤكد هنا أن هذا الانفتاح يجب أن يجد سبيله إلى التنفيذ، إن على الصعيد العام، على مستوى تصرفنا في بلدنا، أو على الصعيد الخاص، على مستوى المؤسسة الجامعية التي ننتمي إليها.

«مكانٌ لإعادة النظر الجذرية ولحسن التمييز». لقد سمحت لنا اختبارات الحوكمة التي أتيت لنا أن نقوم بها بأن نتعلم أموراً كثيرة. وأول ما تعلمناه هو ضرورة أن نقيم دوماً في مؤسساتنا آليات لتقديم الحسابات. ثم أعطي لنا أيضاً أن نكتشف أن الإجراءات التي يتبعها كل فرد تقتضي أن تخضع للتقييم بصورة دورية؛ وهو تقييمٌ من شأنه بالتأكيد أن يفضي إلى إعادة نظر جذرية وإلى اكتشاف مسالك جديدة ينبغي إزاءك إنتهاجها. فنحن هنا حقاً مدعوون إلى القيام بعمل شاق، ولكنه عمل أساسي، وهو عمل يفترض حرية فكرية كبيرة - إن كل ما أقوم به يمكنه، من أجل صالح المؤسسة، أن يكون دوماً عرضةً لإعادة النظر-، ويفترض أيضاً قدرة حقيقية على تمييز ما هو الأفضل للجامعة. فالتقويم، وحسن التمييز، وحرية التقدير وإعادة النظر، كلها مفاهيم من شأنها أن تعيننا في المحافظة على حيوية مؤسساتنا وسلامتها، وعلى إبقاء جامعتنا في حالة يقظة دائمة.

«مكانٌ ننطلق منه دوماً نحو المزيد من الانخراط في المجتمع». هذا ما أعلنه يوماً الأب أروبي *Arupe*، الرئيس العام الأسبق للرهبانية اليسوعية، في معرض حديثه عن مدارس الرهبانية: «يتعين عليكم أن تنشئوا رجالاً

من أجل الآخرين». ولا أظن أن وضع الجامعات يختلف عن وضع المدارس. وسواءً أتلقت الأمر بالبعد المهني أم بالالتزام الاجتماعي والسياسي، فلن يختلف المنظور. فلا يمكننا تنشئة الطالب في جامعة يسوعية إلا من أجل الآخرين، أي لخدمهم، ويغير ما يجب تغييره، ويعيش مع كل من هم مدعوون إلى إنشاء عائلة، أو فريق، أو بلد.

وأخيراً، «مكانٌ للابتكار والإبداع». فلا تستطيع في نهاية الأمر جامعة يسوعية إلا أن تكون النقيض التام للنزعات المحافظة بمختلف أنواعها. ويجب أن تنشط في صميمها دوماً هذه الدينامية التي تدفع بكل فرد من أفرادها إلى الابتكار والإبداع. إن الكلمة اللاتينية 'magis' التي غالباً ما استعملها القديس اغناطيوس تعني «المزيد»، وهي مفتاح النشاط الذي ينبغي أن يقيم في داخلنا. فيقع على عاتقنا أن نحسن ترجمة هذا الأمر كما ينبغي. فنحن في الواقع مدعوون بإلحاح، بحكم انتمائنا إلى جامعة هذه هويتها، إلى أن نبذل دوماً المزيد على صعيد العطاء في سبيل بلدنا، وعلى صعيد الابتكار في مجال البحث العلمي، وعلى صعيد الإبداع على المستوى المؤسساتي. فنحن أشبه ما نكون هنا إزاء مقتضى داخلي يفترض فيه أن يدفعنا إلى أن نسعى دوماً إلى تحطيم الهياكل التي تأسرنا وتشلنا، وأن يحملنا على أن ننمي باستمرار ما في كل واحد منا من طاقات غالباً ما تبقى خفية، وعلى أن ننخرط انخراطاً أعمق في آليات تحملنا وتدفع بنا، أفراداً ومؤسسات، إلى الالتزام على الصعيد الوطني، والإقليمي، والدولي. ومما لا شك فيه أن جامعة تستقطب في داخلها هذه الطاقات كلها لا يسعها إلا أن تكون جامعة ذات سمات خاصة، جامعة ألا وهي الجامعة اليسوعية التي ما فتى مئات الجامعيين، من رهبان يسوعيين وعلمانيين يبذلون قصارى جهدهم، منذ عقود، في إقامتها.

× × × × ×

## خاتمة

لبضع سنوات خلون، وفي إطار الأعمال التي قامت بها جامعتنا حول ما دُعي « جامعة القديس يوسف للعام ٢٠٠٧»، صيغ بيان خاص برسالة جامعتنا ورويتها، وقد تطرّق بالطبع إلى كلّ المسائل التي أتينا على ذكرها. ولقد ركّز فيه على النوعية والمشاركة في الحياة العامة. ولقد استرعى انتباهي يومذاك بصورة خاصة في سلسلة المقترحات أمران. فاسمحوا لي أن أعود إليهما اليوم. أمّا الأوّل فكان يتعلّق بالطلاب ويدعو جميع المعنيين وكل واحد منهم إلى «تمكين الطلاب من أن يصبحوا أشخاصاً أحراراً، ومستقلين، وقادرين على التفكير، والتوليف، والحكم النقدي، والمبادرة، وحبّ الإقدام، والاندماج في جسم اجتماعي، ومنفتحين على التساؤلات الروحية». وأمّا الأمر الثاني الذي يسترعي اليوم انتباهي أيضاً فهو الذي يدعونا إلى «ممارسة وظيفة التفكير في قضايا المجتمع، في نطاق الحرص على الوحدة الوطنية». فينبغي أن يشكل هذان الموضوعان باستمرار دعوة لنا إلى التزام فعلي أقوى في قلب جامعتنا، وفي قلب لبنان. فهما في الواقع يهدفان إلى تحقيق الأساسي: تنشئة الطالب، والاضطلاع بقضايا المجتمع اللبناني. ويظهر لنا بوضوح أنّ الطريق الذي ما زال يتعين علينا أن نتجازه طويل، ونعرف أيضاً أنه ليس سهلاً. غير أنه لمن الأهمية بمكان أن نضطلع بهذه المهمة بشغف وحماس. لقد ذكرنا ما ينبغي لجامعة يسوعية أن تكون عليه، وأن الرسالة التي تقع على عاتقنا والتي نبرزها، هي جوهر الأمور كلّها. فهل من مهمة أدعى إلى الحماس من هاتين المهمتين: مساعدة طلابنا ليصبحوا نساءً ورجالاً أحراراً؛ وبذل قصارى جهدنا ليتخلص بلدنا ممّا يشلّه؟

فتلك هي مهمتنا، وهي مهمة علينا أن نقوم بها معاً. ويقتضي ذلك من أسرة جامعتنا التربوية أن تنجح في بناء ذاتها على هذه الصورة. لقد استفتينا منذ بضعة أشهر عمداء كليّاتنا ومديري معاهدنا العليا حول

تصوّرهم ما ينبغي أن تكون عليه جامعتنا على مشارف العام ٢٠٢٠، ولقد أصاب أحدهم في ما دونه : «إنّ الأساتذة يؤدّون حالياً بطيبة خاطر وبنجاح مهامّهم المختلفة... ولكنّ معظمهم يعبرون عن انزعاج وقلّة حماس. وهم يشكون من عدم تقديرهم، ومن كثرة الأعباء التي ترهقهم، ومن عدم قدرتهم على التفرّغ للقيام بالأبحاث، ومن أنّ الرواتب التي يتقاضونها ليست مجزية...». إنّ هذه الشكاوى محقّة، ولا بدّ من إيجاد الحلول المناسبة لها. ولن ننجح في الارتقاء بجامعتنا إلى المستوى الذي ننشده، إن لم نحمل على محمل الجدّ هذه المقدّمات. فالجامعة اليسوعيّة في لبنان هي كلّ عضويّ متماسك، ودعوة موجّهة إلى كلّ فرد ليعمل، وهمّ مشترك يعنى الشركاء كافّة. فعسى أن تتيح لنا الأيام المقبلة، وأياً تكن العواصف التي تخرب منطقتنا، مواصلة مسيرتنا بأمان، ونحن على ثقة بأننا قادرون بتعاوننا على بلوغ هدفنا، ألا وهو البحث عن الحقيقة، كما ذكرنا أولاً، ثمّ قلنا إنّهُ أيضاً تنشئة طلبة أحرار، وهو كما ذكرنا أخيراً بناء جماعة متضامنة. فهذا هو جوهر كلّ شيء.

نَقَلَ النّصّ إلى العربيّة البروفسور هنري العويط